الدول العربية الصغيرة بين الاستقلال والوحدة

الحياة - ١٠/١٠/٨٨

بقلم: غسان سلامة *

■ في محنة لبنان المستمرة، بعض من معضلات الدول الصغيرة في المجموعة العربية فيها من الازمات الكثيرة التي مر بها الاردن والكويت، وتونس وموريتانيا، اساس صلب، ونمو دام انها محنة الدول الاصغر التي تضطرها الظروف لتحمل ضغوط دول عربية مجاورة اقوى ساعدا واوسع طموحا. فتروح تقبل بالضغط حينا وترفضه حينا آخر، ويتسائل قادتها من دون توقف عن جدوى الاستقواء بالخارج لمقاومة هذه الضغوط، وعن شرعية ذاك الاستقواء.

هذه تونس، بعد ارتفاع اسعار النفط ونمو نفوذ جارتيها من الشرق والغرب، تصبح عرضة لاهتمام مبالغ به من ليبيا والجزائر. وضرورة التجاور المسالم مع الاولى من بين اسباب تأجيل زيارة الرئيس التونسي بن علي للولايات المتحدة، وضرورة التفاهم مع الثانية يدفع تونس باستمرار لقبول اهتمام الجار بتفهم ولو بغير حماسة.

وهذه منظمة التحرير الفلسطينية»، وهي تسعى لتوريط العرب في صراعها مع اسرائيل، تصبح عرضة للتدخلات العربية غير المحدودة من كل حدب وصوب، بالضغط العسكري، وبالاستتباع السياسي، وبالورقة المالية. ويحملها هذا الى دفاع مستميت عما يسميه قادتها «باستقلالية القرار الفلسطيني» في وجه محاولات الاستتباع الكثيرة. وتهدر طاقات المنظمة ورجالها في هذه الساحات الجانبية، مما يؤدي الى انعدام في القدرات العسكرية والدبلوماسية، ناهيك عن اضاعة للوقت الثمين.

وهذا الاردن، يمضي مليكه الايام والليالي بحثا عن توازن صعب ومترجرج بين سوريا والعراق، وبين تطلعات قادة الجزيرة العربية وطموحات زعماء منطقة الهلال الخصيب غير المحدودة. فتصبح المملكة الهاشمية نوعا من الدولة - الحدود، من وظائفها امتصاص الصدمات الكثيرة بين الاطراف العربية، لئلا يجرها سكونها للتحول ضمنية للاستتباع.

وهذه الكويت تعود فتبني جسوراً للتواصل مع ايران بالرغم من التعديات الايرانية الكثيرة الباقية في الذاكرة من قصف وتخريب وخطف طائرات. ذلك ان الذاكرة الكويتية تحتفظ ايضا لهواجس قديمة، تجعلها تخاف على الكيان من الاستتباع بل من الزوال تماماً.

هذه فئة من الدول العربية عليها ان تسهم، بقدر او بآخر، بتفهم واستيعاب وتجاوز تطلعات دول عربية مجاورة اقوى. وقد تأخذ هذه التطلعات الواناً كثيرة، وقد يكون لهذه التطلعات شرعية ما. وهذه الكيانات الصغرى لم تعدم وسائل لمواجهة محاولات الاستتباع. ومن هذه الوسائل اثنتان مركزيتان تعود اليها الدول الصغرى باستمرار. الاولى في القرار بالانفتاح السياسي لاداخلي، بحيث يزداد تعلق ابناء الكويت والاردن، والتونسيون والفلسطينيون بكيانهم الذي استطاع اقامة نظام سياسي اكثر انفتاحاً، واوسع اهتماماً بالمشاركة، مع الطرف العربي الذي يحاول استتباعه.

والثانية محاولة مواجهة ضغط طرف عربي قوي، بالتقرب من طرف عربي اخر، وهي لعبة التوازن الداخلية ضمن المنظومة العربية.

وعمرها من عمر الكيانات السياسية الحديثة.

غير ان الانفتاح الداخلي للنظام بحيث تعبأ القوى ضد محاولات الاستتباع، ولعبة التوازن بين الاطراف العربية، ليستا الوسيليتين الوحيدتين القادرتين على انقاذ هذه الكيانات من خطر الاستتباع الدائم. فقد يضطر الكيان الصغير للاستقواء بالخارج غير العربي، بل بل غير الاقليمي لمواجهة طرف عربي يهدد استقلاله او وجوده. فكم من طرف عربي احتمى بالامم المتحدة وبمجلس الامن فيها ضد طرف اقوى مساعداً. وكم من نظام عربي استدعى قوات اجنبية لدعم موقفه. فالكويت لم تستقو بالعرب فحسب في ازمتها مع العراق سنة ١٩٦١ وانما ببريطانيا ايضا. والاردن لم يستقو بالعرب فحسب في ازماته المتكررة. وكم من مرة استجارت منظمة التحرير «بالصديق السوفياتي» ضد هذا «الشقيق العربي» او ذاك؟ وان كانت جدوى الاستقواء بالخارج غير العربي مفهومة، فشرعية هذا الاستقواء، موضوع استفهام دائم. فالروح الكيانية تفسره بعض الشيء، والمثل القومية تمقته لاقصى الحدود.

اما لبنان، فحربه الدامية ليست وليدة هذه الاعتبارات من دون غيرها. فالقضايا الداخلية كثيرة، ومواضيع الصدام عديدة. ولكن لبنان يبقى المثال الادمي لهذا التصادم المستمر بين استقلالية الكيانات ومحاولات الاستتباع والمشكلة تصبح شديدة التعقيد، والخطورة، عندما نرى اصحاب الاستقلالية الكيانية يضطرون للاستقواء باطراف ليست عربية فحسب، بل معادية للعرب اساساً، كما هي حال اسرائيل. وتتعقد الامور اكثر فاكثر عندما نرى دعاة الاستقلالية واعداءهم ينقسمون في الاجمال وفقاً لمعايير طائفية ومذهبية. فتختلط المقاييس اختلاطاً خطيراً، ويصبح التحليل مستحيلا اللهم إن اختار المرء معسكراً طائفياً فانحياز اليه انحيازاً تاماً ويتمد استقواءه بالخارج تحت شعار الدفاع عن النفس واتهم الطرف المقابل بالعمالة.

هذا التعقيد الشديد الذي يميز حرب لبنان لا يلغي البعد الذي ذكرناه منها، وهو صراع الاستقلال والاستتباع وهذا البعد ظاهرة اليوم بوضوح وصراحة ليس البعد الاوحد، وليس الضرورة الاساسي، لكنه هنا، امام اعيننا ولا يمكننا بالفعل ان نتناساه.

وبعث الحريصين على الاستقلالية في لبنان يتنهون اكثر لضرورة الوحدة الوطنية، ولاهمية اصلاح النظام السياسي لكنهم اختاروا اعطاء هذا البعد الدرجة العليا، بل انهم استجثروا به من دون غيرهم من البنانيين، مما يدل الى اهداف سياسية اخرى غير تلك التي يعلنون وهذا الاستئثار بالشعار الاستقلالي، وبرفض الاستتباع والهيمنة، يصبح بالتالي عقبة امام الوحدة الوطنية، ويدفع بالاطراف الاخرى الى استسهال التخلي عنا لاستقلال الوطني، بهدف اعادة التوحيد، او للحصول على حصة اكبر في النظام.

من هنا يبرز المأزق اللبناني، بالمقارنة مع الحالات العربية الاخرى التي ذكرنا، بوصفه نقطة تفجر تستحيل فيه (في المرحلة الحالية) المواءمة بين الاستقلالية وبين الوحدة. ويبدو ان مأساة اللبنانيين، كما اوصلتهم اليها ميليشياتهم، تكمن بالذات بضرورة اختيار احد هذين الهدفين، ولكن من خلال التضحية بالآخر فإما الوحدة او الاستقلال، واما التوحيد او الاستقلال.

هذا لمعادلة السلبية الصعبة تجعل الازمة اللبنانية ازمة مضاعفة، إن قورنت بالازمات التي عرفتها الدول العربية الصغرى الاخرى. فبينما تمت مواجهة محاولات الاستتباع في تلك الدول من خلال الوحدة الداخلية، يتم مواجهتها في لبنان من خلال الانقسام الداخلي - وبالمقابل، بينما يحمل الاستتباع الخارجي ابناء الكيان - الضحية للتوحد، يدفعهم في لبنان الى الانقسام، وايضا للاستقواء بالخارج من دون التساؤل عن هوية هذا الخارج وعن شرعية ذلك الاستقواء.

لذا فالرهان على وحدة لبنان، كالرهان على استقلاله، هو في المرحلة الحالية، رهان غالي الثمن... حتى يأتي يوم، إن اتى، تقوم منه جماعة لبنانية نشطة تحمل شعاري الاستقلال والوحدة معاً، فتخرج ببلدها من المحنة الدامية.

* غسان سلامة استاذ العلوم السياسية في جامعة باريس الاولى، وفي معهد الدراسات السياسية في باريس.